

مجازر 08 ماي 1945 ... الخلفيات والأبعاد

- منطقة قالمة نموذجاً -

أ/ يوسف قاسمي

قسم التاريخ

جامعة دمشق - سوريا

Résumé:

Cette étude s'échelonne sur une période où le mouvement national se renforce considérablement par l'union des tendances nationalistes au sein d'une vaste rassemblement " les amis du manifeste et de la liberté ".

Donc; la période étudiée sera de 1942, date de débarquement Anglo-américain, à 1945 qui correspond à fin de la deuxième guerre mondiale.

On s'intéresse dans cette étude à la naissance et le développement du rassemblement A.M.L.

On s'intéresse également au massacre du 8 mai 1945, à sa cause et à ces effets.

المُلخَص:

نتناول في هذا المقال قراءة في تجربة الحركة الوطنية الجزائرية، كجزء واحد من مجموع حركة المجتمع الهادفة إلى التحرر. وقد اتخذت هذه الحركة مجموعة صيغ للتوحد في سياق محطات التلاقي، وافق تجسيد وحدة الرؤية للمشروع الوطني التحرري خصوصاً في فترة الحرب العالمية الثانية، تلك المرحلة التي تطلعت من خلالها أطراف الحركة الوطنية إلى صناعة وبعث " مشروع الوحدة السياسية " فيما بينها، عبر تشكيل " جبهة أحباب البيان والحريّة ".

فما هي ظروف وملابسات تأسيس هذه الجبهة ؟ وما هو الدور الذي لعبت في النشاط الوطني خلال الحرب ع2 ؟

وهل كان لهذا الدور علاقة بارتكاب إدارة الاحتلال الفرنسي مجازر 08 مايو

1945 ؟

مقدمة :

تتأسس المجتمعات وتضمن لنفسها البقاء إذا تشكلت لها منظومة خاصة تتوازن فيها عناصر الحياة وتتعامل بالمقدار الذي تتلاءم فيه. والتحيز لعنصر أو جانب على حساب آخر - لسبب أو آخر - قد يدفع قوى المجتمع الذاتية أو المضادة لهذا التوجه، إلى إحداث خلل في النظام العام.. مما يؤثر في النهاية على استقرار وفعالية الحركة الاجتماعية العامة وتتأسسها مع التوجه والهدف المرسوم، ضمن تلك المنظومة الاجتماعية. ومن هنا يمكن قراءة تجربة الحركة الوطنية الجزائرية كجزء واع من حركة المجتمع الهادفة إلى التحرر، الخاضعة للقوة الذاتية الدافعة من جهة، وللشروط الموضوعية، وما تحمله في طياتها من تناقضات ومفاجآت .. من جهة ثانية.

طبيعة الإيديولوجية الاستعمارية:

تحمل العقلية الجماعية للمجتمع الأوروبي خاصة المجتمع الغربي عامة - تبريرا للفعل الاستعماري، تحت عنوان "إدخال الحضارة" لشعب يحيا في ظل الهمجية والبدائية، ومن هنا فقد تعامل هؤلاء الغزاة الفرنسيين مع السكان الجزائريين بعقلية الفاتح، وهي الفكرة التي عبر عنها الجنرال لموريسبار بقوله: (يبدو لي أن الحرب، حين يتعلق الأمر بشعوب متخلفة، عمل تبشيري خاصة بالنسبة إلى أناس لا يعرفون غير السلاح كلفة اقتناع، وإنني أعتبر الاحتلال وسيلة كبرى لتوريد الأفكار (...)) ففي الحدود الفاصلة بين المدنية والهمجية لا بد من وجود رجال يحملون السيف (1).

هكذا تبدو رائحة العنصرية الكريهة الطاغية على طبيعة العلاقة بين الوافد الغازي من ناحية وبين السكان الأصليين جعلها، نتيجة سلوكيات الاحتقار والنظرة الدونية، يضاف إليها الخوف من " العربي " ذلك الهاجس الذي سكن العقلية الاستعمارية ومن ثم ولد التفاوت والتمايز كقاعدة للتعامل. وقد عبر أستاذ القانون بكلية الجزائر " إميل لرشي " سنة 1903 عن هذا المعنى في قوله: (إن وضع الفرنسيين اليوم بالجزائر شبيه بوضع الإفرنج في غالبا القديمة: جنس غالب يفرض هيمنته على الجنس المغلوب، هناك إذا أسياد ورعايا، أصحاب الامتيازات وأناس لا امتيازات لهم، فلا محل هناك للمساواة) (2)

على خلفية هذه الأفكار العنصرية التمييزية بنيت جميع المعاملات الاجتماعية والثقافية والسياسية وتأسيس المؤسسات الإدارية والحكم في البلاد. واصطبغت بذلك الإيديولوجية الاستعمارية - كما يقول الأستاذ محمد حربي - سواء اكتسبت شكل الليبرالية أو العلمانية أو المسيحية أو حتى الشيوعية... كلها تغذت من واقع هذه الثقافة العتيقة، التي تجعل من أوروبا - مهد العقلانية والتقنية الحديثة - هي النموذج والمرجع الذي يدور حوله تاريخ الإنسانية كله! وعليه نظر الفرنسيون إلى المجتمع الجزائري على أنه مجتمع متخلف مفطور على سلوكيات وممارسات فاسدة ومن ثم فإن الجزائر في نظرهم - "متاع لا صاحب له" فمسؤولية الفرنسيين هي الحفاظ عليها واستقلالها بالطريقة التي يرونها ملائمة!، فالفضل الأول لذلك يعود إليهم منقذين لها من الضياع؟! " لأن العرب " الجزائريين خاصة ينصب تفكيرهم حول فكرة الهدم لكل ما هو مشيد ومن ثم فسكانها هم أعداء لأنفسهم من جهة وأعداء لمن يريد إنقاذهم وتحضرهم من جهة ثانية! ...

فالواجب الاجتماعي والأخلاقي يلزمهم بالاضطلاع بتلك الرسالة وفي سبيل ذلك سعى المحتلون إلى إضفاء الشرعية الأخلاقية والواقعية على استعمارهم وأفعالهم وعمدوا إلى استخدام القوة كوسيلة لذلك. منطلقين من مسلمة مفادها أن الجزائر: " من الأراضي التي يجوز تملكها " شأن كل البلدان (التي لا تخضع لسيادة منظمة سواء كانت خالية من السكان أو مسكونة من طرف مجموعات محلية متوحشة غير منظمة سياسيا)⁽³⁾.

والحقيقة أن الفرنسيين وغيرهم من المستعمرين تستروا خلف هذه الأوهام والمغالطات والزيف لتجاوز القيم الإنسانية النبيلة، ويدوسوا الأعراف الدولية، ويحكموا المجتمعات الضعيفة بشريعة الغاب مستندين إلى اختلال ميزان القوة العسكرية في ذاك الوقت وبعده. وهو ما يكشف على أن هذه المجتمعات في جانبها الأخلاقي لا تزال تسكن ظلام القرون الوسطى. وأن " نظرية العدل والإنصاف " عندها مرهونة بنظرية القوة⁽⁴⁾.

نتيجة لكل ذلك اعتقد المستعمرون أنهم وحدهم من يقرر مصيرنا ويحدد ساعة التحرير ويرفضون كل صيغ التفاهم والمبادرات الوطنية لإيجاد الحلول المناسبة لهذه الوضعية وهو الأمر الذي يتطلب استعمال العنف كوسيلة شرعية وثورية للتخلص من هذا الكابوس .

واقع الحركة الوطنية واتجاهاتها خلال الحرب العالمية الثانية

عند اندلاع الحرب العالمية الثانية وجد الجزائريون أنفسهم أمام واقع جديد (ففرنسا كانت ضعيفة في بلادها وفي الجزائر، فلا حكومة قوية ولا جيش على أهبة الاستعداد معنويا)⁽⁵⁾. كما أن حال الحركة الوطنية لم يكن أحسن، حيث كانت منقسمة ومحبطة معنويا جراء عدم استجابة فرنسا لمطالبها وقتل مشروع " بلوم فيوليت " 1935، وانفراط عقد المؤتمر الإسلامي 1936 بعد رفض فرنسا مطالبه وعودة الوفد خائبا من باريس ن ومن ثم يمكن القول أن واقع الحركة الوطنية بدا كما يلي :

* المنتخبون والنواب انقسموا إلى مجموعتين: مجموعة ابن جلول ضمن (التجمع الفرنسي الإسلامي) ومجموعة فرحات عباس ضمن (الإتحاد الشعبي الجزائري) الذي تطوعت عناصره في صفوف الجيش الفرنسي، على رأسهم زعيمه كصيدلي احتياطي !

* والحزب الشيوعي كان قد صدر بشأنه قرار الحل بفعل التزامه بسياسة الجبهة الشعبية اليسارية في فرنسا، ووقوفه ضد حكومة فيشي .

* أما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فقد مرت بمرحلة سبات وصدر في حقها قرار الحظر بعد رفضها الوقوف إلى صف الحرب مع فرنسا، واعتقل بعض من قياداتها على رأسهم الشيخ الإبراهيمي.

* في حين صدر قرار الحل في حق حزب الشعب الجزائري واعتقل زعيمه أمصالي الحاج وقمع مناضلوه ... بسبب موقفه من الحرب ورفض الانخراط فيها إلى جانب حكومة باريس . لكل ذلك لم تكن الحركة الوطنية في حال تملك فيه لا الوسائل ولا الإدارة السياسية كي تحول الحرب لصالح الجزائر... (وكان بالإمكان وجود حركة وطنية موحدة سنة 1939، أي تفرض على الأقل شروط سياسية لاشتراك الجزائريين في الحرب)⁽⁶⁾. لكن ذلك لم يحدث، وعلى الرغم أن الحرب قد جعلت وضع الشعب الجزائري أكثر صعوبة وتعقيدا (تجنيد، قمع، اعتقال، أوبئة، وجوع ... الخ) إلا أنها في الوقت نفسه فتحت آفاقا جديدة خاصة بعد سنة 1942 تاريخ نزول الحلفاء في الجزائر حيث كما يقول الأستاذ حربي: (فقدت السلطة الفرنسية المبادرة في إفريقيا الشمالية، لم يكن

ممثّلها الجنرال جيرو يملك أية حرية مناورة حيال الأمريكيين وقد بدا السياق مناسباً إذا للبرجوازية الجزائرية⁽⁷⁾، يقصد فئة النخبة والنواب بقيادة فرحات عباس .

كما يؤكد نفس المعنى الأستاذ محمد العربي الزبيري بقوله: (إن أبرز حدث تاريخي يجب الرجوع إليه لفهم هذه الفترة، وما عرفته من تحركات سياسية، إنما يتمثل في إنزال الحلفاء قواتهم على الساحل الجزائري (08 نوفمبر 1942) إن ذلك الحدث قد حتم على قادة الساحة السياسية الوطنية الجزائرية الإسراع في التلاقي من أجل التشاور، حول ما ينبغي القيام به لحماية الشعب الجزائري، وتمكينه من تقرير مصيره بنفسه⁽⁸⁾ .

وهذا ما أورده أحد زعماء الحركة الوطنية في تلك الفترة السيد فرحات عباس حيث أشاد بجو: (الحماس الذي اندلعت نيرانه في قلوب الجزائريين غداة نزول الأمريكيين والإنجليز في شمال أفريقيا سنة 1942 فسرعان - يضيف - ما لمت المنظمات السياسية شعثها ووحدت برنامجا مشتركا فدوى صوت النفير ن وشمّر النواب المسلمون على ساعد الجد ووجهوا إلى السلطات الفرنسية نداء لم يحض بأي اعتبار ولا جواب)⁽⁹⁾ .

ويتفق مؤرخو الحركة الوطنية والمهتمون بالشأن الوطني من الكتاب، خلال هذه المرحلة على اعتبار البيان الجزائري الذي صاغه وقدمه فرحات عباس في فيفري سنة 1943 بالتشاور مع أطراف الحركة الوطنية الأخرى (حزب الشعب + جمعية العلماء) يمثل نقلة نوعية في المسار المطّلي للحركة الوطنية مجتمعة، كما اعتبرته بعض الأوساط السياسية الفرنسية " ردة وخيانة " من عباس تحديدا على الرغم من وقوفها واعتراضها (هذه الأوساط) نفسها على سياسة الإدماج التي كان يطالب بها هو وأقرانه من النخبة والنواب طيلة عقد الثلاثينات وإلى غاية سنة 1943، وكما يقول الأستاذ: أحمد محساس فإنه : (مع ذلك كانت مساهمته في الكفاح من أجل الإدماج وفشله ويا للمفارقة إيجابية لأنهما أظهر للرأي العام الجزائري أن الاستعمار لم يكن يرضى حتى بالمطالب التي تتبع مباشرة من سياسته الرسمية الخاصة بالإدماج والتي صرحت بها مرارا الحكومة الفرنسية)⁽¹⁰⁾ .

من جهة أخرى فقد تميزت هذه المرحلة (بعد نزول الحلفاء سنة 1942) من جانب الحركة الوطنية بمحاولة ملء الفراغ - إن صح التعبير - بفعل النشاط الكثيف الدعوى الذي خاضه فرحات عباس وجماعة النخبة والنواب وكذا الشيوعية الذين سمح لهم بالتحرك في ظل هامش الحرية الذي تمتعوا به عكس زملائهم في حزب الشعب والجمعية الذين كانوا معتقلين ومبعدة عن معترك السياسة الوطنية

وبذلك كما يقول سعد الله: (تنقلت الحركة الوطنية من محاولة كسب تأييد الحلفاء إلى محاولة التفاهم مع لجنة فرنسا الحرة... وقد ظهر خلال ذلك تيار وسط مثله (البيان الجزائري) الذي كان في حد ذاته يمثل طفرة كبيرة في تفكير النخبة)⁽¹¹⁾

وعموما يمكن القول أن فترة الحرب العالمية الثانية بالنسبة للحركة الوطنية بقدر ما كانت مرحلة عسيرة بفعل سياسات الحضر والاعتقال، والتجنيد القصري للشباب الجزائري في الحرب وحرمانه من حقوقه السياسية وحاجاته الاقتصادية ... بقدر ما شكل انهزام فرنسا أمام الألمان سنة 1940، ثم نزول الحلفاء في الجزائر، نوفمبر 1942 فرصة مواتية لطرح المشكل الجزائري والسعي إلى تدويله من جهة وفرصة تقارب وتوحيد بين فصائل الحركة الوطنية حيث تمخضت عن ميلاد " جبهة أحباب البيان والحرية" في مارس 1944. تلك الجبهة التي ستخوض من خلالها المجموعة الوطنية نشاطها وتعبئتها الجماهيرية، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وإقبال فرنسا على ارتكاب المجازر البشعة في حق الجزائريين في 08 مايو 1945 م .

فما هي إذا ملابسات ظهور هذه " الجبهة" ؟ وما هو مضمون مشروعها السياسي المطالب ؟ وما موقف الإدارة المشتركة " الحلفاء ولجنة فرنسا الحرة " منه ؟

جمعية " أحباب البيان والحرية " ملابسات النشأة والتطور:

إذا كما سبق أن ذكرنا فإن الزخم السياسي الوطني خلال الحرب العالمية الثانية، كان سببه الأول نزول الحلفاء (الأمريكيين والإنجليزيين) في شمال إفريقيا : في المغرب الأقصى في شهر أكتوبر 1942 وفي 08 نوفمبر من نفس السنة في الجزائر، وكان أن أضفى نزوله ذلك حركة سياسية وجوا أقرب إلى التفاؤل بالحرية والديمقراطية منه إلى القبضة الحديدية التي فرضتها الكونفوشي على البلاد خاصة .

موقف إدارة الاحتلال من تنامي نشاط جمعية أحباب البيان والحرية

لم يفتأ المستعمرون وغلاة المستوطنين أن عقدوا العزم على التخلص من هذا النشاط الوطني المتعظم تحت قيادة " أحباب البيان والحرية " حيث لم يسبق لهم أن شاهدوا على الساحة الوطنية حركة واسعة وشاملة بهذا المقدار من الحيوية والنشاط والتجاوب الشعبي الكبير لذلك عمدوا إلى انتهاج أسلوب الاستفزاز والمناورة لإيجاد مبرر للتخويف والقمع، وبث الفرقة والتناحر في صفوف هذا التجمع .

وقد أدركوا أن هذه الحركية الفذة مصدرها عنصران: الأول حزب الشعب الجزائري باعتباره القوة المحركة بفضل تجذره في الأوساط الشعبية ومن ثم فقد ساهم في إضفاء الصبغة الشعبية على الحركة كما طور خطابها السياسي بفضل رجحان كفة أطروحاته الوطنية المنسجمة مع تطلعات وطموحات الجماهير .

أما العنصر الثاني: فهو عنصر التحد ذاته الذي جسده حركة " أحباب البيان والحرية " بين أهم فصائل واتجاهات الحركة الوطنية (حزب الشعب، جمعية العلماء، النخبة والنواب) ولم يبق خارج التجمع سوى الحزب الشيوعي الذي لم يكن على صلة مباشرة بالجماهير الشعبية وأقرب إلى إدارة الاحتلال، كما أن خطابه السياسي وأفكاره كانت نشازا، لأنها لم يستطع التخلص من التبعية للمجموعة اليسارية في فرنسا وفي روسيا ن فكان حاله في واقع الشعب الجزائري كمن يغني خارج السرب - كما يقال - ! لأجل ذلك سعى المستعمرون إلى هدفين أساسيين:

1- عزل حزب الشعب الجزائري من " التجمع " ومن ثم تفادي الخطر الذي يمثله كقوة وطنية حية: خصوصا إذا استطاعت زرع الشكوك وإثارة الحزازات بين مسؤولي التجمع .

2- تكسير هذه " الوحدة الوطنية " باعتبارها تمثل الخطر الحقيقي اتجاه إدارة الاحتلال، وفرنسا المكشومة بجرح الهزيمة، أمام الألمان من جهة وضياح هيبته ومكانتها محليا ودوليا .

وقد بدأ التهديد يوجه لقيادة " التجمع "، وكان عباس فرحات - باعتباره السكرتير الأول للحركة - أول من تعرض للتخويف من طرف الحاكم العام. وقد روى الحادثة

كالتالي : حاول موظف الإدارة لفت انتباهي إلى نوع تشكيلة أحباب البيان والحرية المكلفة بنشر الجريدة " المساواة " فقال لي: (إن في مكاتب تلك الفروع عناصر معروفة باتتمائها إلى حزب الشعب ... إنكم تعملون لصالح مصالي) .

وعلق عباس على ذلك بقوله: (إن من حق جميع الجزائريين الانضمام إلى أحباب البيان والحرية، وإن أهم شيء بالنسبة للجزائر في سنة 1954 هو تلبية المطالب الوطنية وتسطير برنامج لتنفيذ تلك المطالب، فالأحرى أن ترتاح الحكومة لوجود حزب الشعب في هذا التجمع)⁽¹²⁾ .

ومن جهته يؤكد عباس أنه وفي شهر أفريل 1945، أخبر العامل " لوسطراد كاربونيل " على سبيل السر الدكتور سعدان بأنه : (ستقع اضطرابات عن قريب يحل على إثرها حزب عتيد)⁽¹³⁾ .

وهكذا انبرى المعمرون ومنهم رئيس اتحادية شيوخ البلديات " وآبو " يذيعون ويروجون لحدوث اضطرابات وشغب في الجزائر ستكون سببا في التراجع عن الإصلاحات وإلغاء مرسوم 07 مارس 1944. وبدا بوضوح أنه وفي الوقت الذي كانت فيه " حركة أحباب البيان " تتبلور وتأخذ طريقها نحو جمع الشمل وتوحيد الموقف اتجاه القضية الوطنية، كانت الجبهة الكولونيالية تتربص وتتآمر وتتواطأ (إدارة ومستوطنين) لخنق " الصوت الوطني " واغتيال حلم الجماهير المتطلعة لفجر جديد يكون فيه استقلال البلاد .

وفي الفاتح من ماي 1945 المصادف لليوم العالمي للعمال اغتتم زعماء الحركة الوطنية المناسبة لينظموا مظاهرات سلمية تحتفل بعيد الشغل من جهة وتندد بالقمع الاستعماري من جهة ثانية كما تؤكد للعالم مشروعية المطالبة بحق تقرير مصير الشعب الجزائري وإبطال مقولة " الجزائر فرنسية " وكان وراء هذه المظاهرات نشطاء " حزب الشعب " حيث رفعت فيها شعارات " استقلال الجزائر"، " تحرير مصالي"، " نهاية الاستعمار " ... وما إلى ذلك ... وشارك فيها مئات المتظاهرين، في مختلف مدن الوطن الجزائري، لكن سلطات الاحتلال حاولت استفزاز المتظاهرين، وجرهم إلى الصدام والمواجهة، وقد عمدت في الجزائر العاصمة وبجاية ووهران إلى إطلاق النار على

المتظاهرين، وقتلت مناضلين اثنين في العاصمة وأصابت العديد من الجرحى، ثم اعتقلت الكثير من المناضلين⁽¹⁴⁾..

وكانت هذه الأحداث بداية الشرارة الأولى التي سبقت المواجهات والمجازر التي حدثت يوم الثامن ماي 1945 م في سطيف وقالمة وخراطة، ومدن كثيرة في الشرق الجزائري... وبذلك يظهر أن الموقف الفرنسي من حركة "أحباب البيان والحرية" وتربصها بها، وتبينت نية الغدر بها كان وراء تلك المجازر الرهيبة، والفاجعة العظمى التي لحقت بالشعب الجزائري في ذلك اليوم الأسود.

ملايسات وقوع مجازر 08 ماي 1945 :

إن الوضع الوطني العام في الجزائر عشية ارتكاب الفرنسيين لمجازر 08 ماي 1945، كان مشمولاً بالوعي الوطني المتنامي، وانتظار ساعة الخلاص من جانب الجزائريين وتربص واستعلاء من جانب الفرنسيين، وبدل أن يتفهم الفرنسيون الواقع الجديد للحركة الوطنية وتطوره راحوا يتحرشون بها وبرجالها : (وكانت حكومة "كاترو" بعدها حكومة "شاطينو" تريد وقف العاصفة - حسب تعبير كاترو- ولكن الموقف مع الأنكلو أمريكيان منعها من ذلك مؤقتاً وجعلها تؤجل الحسم إلى ما بعد الانتصار)⁽¹⁵⁾ .

كما ادعى الفرنسيون أنهم اكتشفوا: (مشروع ثورة ضد فرنسا، وقد كانوا كعادتهم يبحثون عن أي سبب يبررون به جرائمهم الوحشية ضد الشعب الجزائري فوجدوها في هذه المظاهرات السلمية)⁽¹⁶⁾.

ويذهب سعد الله إلى القول : أن بعض الكتاب ومنهم "عباس فرحات" يذهب (إلى أن عباس وأمصالي والإبراهيمي قد اجتمعوا سرا في قصر الشلالة في نهاية شهر أفريل واتفقوا على برنامج محدود وسلمي، وهو مهاجمة الإدارة الفرنسية والاستعمار، كما يرى آخرون أن الزعماء الثلاثة قد اتفقوا على القيام بمظاهرة علمة يوم احتفال الحلفاء بالانتصار. وكان الهدف من هذه المظاهرة هو الضغط على الفرنسيين بإظهار قوة الحركة الوطنية، ووعي الشعب الجزائري بمطالبه)⁽¹⁷⁾ .

ومهما يكن الأمر فإن كل المؤرخين والكتاب يتفقون على أن الجزائريين بقيادة " حركة أحباب البيان والحرية " قد قرروا الاحتفال بيوم الانتصار ونهاية الحرب العالمية

الثانية (08 ماي 1945) والتعبير عن مشاعرهم الوطنية، وطموحهم في تقرير المصير، ومشاركة بقية شعوب العالم فرحة هذا اليوم، كما أن جلمهم اتفق كذلك على أن السلطات الفرنسية هي التي أذنت للجزائريين بتنظيم المظاهرات بهذه المناسبة وقد حدث هذا بمختلف مدن الجزائر وليس خاصا سطيف وحدها⁽¹⁸⁾.

وقد بدأت المظاهرات والمواجهات في سطيف يوم الثلاثاء 08 ماي 1945، حيث كان يوم السوق الأسبوعي حيث يتوافد على المدينة الآلاف من الفلاحين وسكان البوادي والقرى، لاقتناء حاجياتهم وضرورات حياتهم. وفي نفس اليوم نظمت مظاهرة سلمية رفعت فيها الراية الوطنية وسارت في حي المحطة قرب المسجد الجديد متوجهة إلى المدينة محفوفة بالشرطة، وسارت حوالي ألف متر، وفجأة وأمام " مقهى فرنسا الكبير" برز محافظ الشرطة، وحاول نزع الراية الوطنية من الطفل (بوزيد سعال " لكن الطفل رفض تسليمها، فأطلقت الشرطة الرصاص وأردته قتيلا. وجرح العديد من المتظاهرين، وهكذا اضطرمت نار الفتنة واندلع لهيبها واشتبك المتظاهرون مع رجال الشرطة المعززون بالجند الفرنسي وأطلقوا الرصاص ... وسقط الضحايا ...

ويروي " عباس " هذا المشهد قائلا: (... استشهد عدد عديد من إخواننا وجرح الكثيرون منهم وسارت بالحوادث الركبان، وأصبحت موضوع أقوال وأحاديث ومذكرات وأساطير، فاستطارت هذه الحوادث كالوباء المنتشر واجتاحت أرياف عمالة قسنطينة وقرأها ...، أسفرت عن قتل 102 من الفرنسيين، وعن تقتيل عشرات الآلاف من إخواننا، فتكالب جيوش الليفي الأجنبي والسنغاليون والطابور المغربي تحت قيادة الجنرال " دوفال " والكوننيل "بورديا" على قرانا ودواويرنا...، وأطلق المعمرون العنان لهمجيتهم ووحشيتهم وضراوتهم، فلم يروا مسلما إلا قتلوه ن وجريحا إلا أجهزوا عليه، وهزتهم من جديد الحمية الاستعمارية... وكل هذا باسم المدنية والحضارة⁽¹⁹⁾.

وقد روجت الولاية العامة لمنشور ينضح حقدا وكراهية، ويلهب حماس المستوطنين محرضا إياهم على قتل الجزائريين وإعدام قادتهم الوطنيين، مما جاء فيه: (كفانا ! إن الرأي العام الفرنسي يطالب بإعدام القادة الوطنيين وفي طليعتهم فرحات عباس). وقد ألقى القبض على عباس فرحات في مقر الولاية العامة بالجزائر مع الدكتور

سعدان يوم 08 ماي 1945 وصدر قرار يوم 10 ماي بحل حركة " أحباب البيان والحرية"، وأعلنت الأحكام العرفية، ووجهت اتهامات للقادة الوطنيين - على رأسهم عباس - بالمرس بالسيادة الفرنسية الداخلية والخارجية وسجنوا (عباس، مصالي، إبراهيمي)، ولم يطلق سراحهم إلا بعد صدور قرار العفو يوم 16 مارس 1946 م .

تلك بايجاز وصف الحوادث والمجازر التي ارتكبتها إدارة الاحتلال وأعوانها في حق الجزائريين العزل، وذهب ضحيتها حسب الروايات الجزائرية أزيد من 45000 قتيل وشهيد . فكيف كان وقع وتأثير هذه الحوادث في مسار الحركة الوطنية ؟

إن صدى هذه المجازر ووقعها على الشعب الجزائري كان شديدا، كما أن تأثيراتها على مجرى الحركة الوطنية بدا بارزا للعيان، حيث كما عبر عنها الأستاذ بلغيث : (أن مجازر 08 ماي 1945 التي تركزت أساسا في مناطق قالمة وسطيف وخرطمة لم تنه روح المقاومة لدى الشعب الجزائري، بل كانت بداية مرحلة جديدة، أعيد خلالها النظر في الإستراتيجية وفي وسائل العمل والكفاح للمرحلة المقبلة)⁽²⁰⁾.

ويؤكد الأستاذ سعد الله بأن حوادث 08 ماي 1945، وإن انتهت بعد أيام قليلة لكن عواقبها لم تنته حتى على عواقب السنين، وحتى وإن قضى الفرنسيون على الحركة الوطنية الصاعدة من خلال التخلص من حركة " أحباب البيان والحرية "، إلا أنهم بفعلتهم تلك قد (حفروا هوة سحيقة بين الجزائر وفرنسا)⁽²¹⁾. كما أكد الأستاذ الشاذلي المكي في شهادته حول المجازر- وهو واحد من الوجوه والعناصر النشطة في حزب الشعب المنضويين آنذاك تحت " حركة أحباب البيان " وأحد صناع مظاهرات 08 ماي 1945، إعدادا وتأطيرا- فيقول : (إن أحداث ماي وضحت الطريقة للجميع)⁽²²⁾ .

ومن جهته يعتبر الأستاذ " سليمان الشيخ " بأن حوادث 08 ماي 1945 الدموية قد وضعت (نهاية لتجربة أصدقاء البيان والحرية، ولكن النار تظل مشتعلة تحت طبقة الرماد التي تركها تدفق العنف القمعي، وكانت أيام الغضب هذه، قد نقشت إلى الأبد الذاكرة الجماعية لشعب استبقى في العبودية جرح كبريائه جرحا بليغا)⁽²³⁾ .

وهكذا كان يوم 08 ماي 1945 المأساة والحزن، بمثابة نقطة تحول إيجابية في مسار الحركة الوطنية (وجاءت لتؤكد لمرة أخرى بأنه لا أمل يرجى في ظل النضال في

ظل الشرعية الاستعمارية، ذلك أن الوجود الاستعماري نفسه هو نفي للوجود الوطني للجزائر ... وعليه بنت (الحركة الوطنية) رؤاها وضبطت خط سيرها النضالي في المرحلة التالية⁽²⁴⁾. وهو الخط الثوري والتوجه نحو الإعداد للكفاح المسلح، وهذا ما سيتكفل به حزب الشعب - حركة الانتصار للحريات الديمقراطية - بعد ذلك من خلال تأسيس المنظمة السرية « OS » سنة 1947 م المهيأة لهذا الغرض.

مجازر 08 ماي بمنطقة قالمة

" x.provanse " لقد تضمن ملفا أفرج عنه حديثا سنة 2005، وكان من قبل ممنوعا من التداول في أرشيف " أيكس بروفونس " عن حقائق جديدة حول مجازر 8 ماي 1945 لمنطقة قالمة، لم تكن معروفة من قبل من بينها :

1- الدور الذي لعبته " اشيارى"(*) في المجزرة ومسؤوليته بمنطقة قالمة، حيث توضح إحدى رسائل الحاكم العام إلى السيد وزير الداخلية الفرنسي آنذاك والمؤرخة بيوم 14 جويلية 1946⁽²⁵⁾ تحمل شهادة "اشيارى" الذي أكد للحاكم العام انه تلقى مكاملة هاتفية في 8 ماي 1945 على الساعة 11.20 من والي عمالة قسنطينة يطلب منه توقيف المظاهرة التي سينظمها المسلمون في هذا اليوم بكل الوسائل الممكنة. ثم أضاف بأنه تلقى مكاملة ثانية على الساعة 15 من نفس اليوم تحثه على نفس الأمر؟.. كما بينت الرسالة أن " اشيارى " أكد بأنه تلقى الدعم والمساعدة من ممثل الحزب الشيوعي بالمدينة " ناجي عيسى " لقمع المظاهرة وشيوعيين آخرين أبرزهم " هنري "، وكان لهم الدور البارز في تعقب الوطنيين وملاحقهم ومد قوى الأمن بالمعلومات عنهم لاعتقالهم أو قتلهم ... ولعل ذلك يرجع إلى القناعة الإيديولوجية والسياسية للشيوعيين لتسوية المشكل الجزائري... وربما لخصومات انتخابية مع الوطنيين .

2- تكوين ميليشيات قمع المظاهرات وقتل المتظاهرين، حيث كشف الملف المذكور عن الكيفية التي تم بها تكوينها ذلك ما أدلى به محافظ الشرطة، حيث يذكر انه في يوم 9 ماي 1945 تعرضت مدينة قالمة لهجوم كبير وعنيف من طرف المسلمين القرويين (القادمين من البلديات والدواوير المجاورة) فاق حسبه تعدادهم 10000؟ حيث قتلوا الأوربيين كما اعتدوا على أهلهم وزوجاتهم وممتلكاتهم .. الأمر الذي استدعى تكوين

هذه الميليشيات في نفس اليوم، حيث قتلت 9 وطنيين وقد أخذت هذه الميليشيات الصورة التالية:

أ- في الحي الأوروبي : 20 مسلحا برئاسة " بوكو " واستعمال 4 أسلحة مضاءة تحت إشراف "روي" .

ب- السينما: 20 مسلحا تحت قيادة " جيافيرو "

ج- حي بون اكاى : 40 مسلحا تحت قيادة السيد: " شازوت " وهو ضابط احتياط.

د- هيبود روم المركز : 10 مسلحين تحت قيادة " شيلان قابريال " وهو شيوعي.

ه- باب قسنطينة : 20 مسلحا تحت قيادة " شيلان فيكتو " وهو شيوعي كذلك.

باشرت عملها في أحياء المدينة مرهبة السكان، كما مارست القنص ضد كل عربي مسلم مشتبه به، حين استقرت لها الأوضاع امنيا في المدينة... لتتحول في دوريات خارج المدينة إلى البلديات المجاورة المختلطة والقرى والدوائر... متفenne في أعمال القتل والإرهاب في حق الأبرياء. وإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة لأفراد هذه الميليشيا مع قادتهم فان المحصلة تعطينا 125. وفي تقرير ثان صدر سنة 1946 من نفس الجهة يذكر أن عدد أفراد الميليشيا قد تجاوز 280 فردا مسلحا هذا ما أعلنته التقارير.. وإذا أضفنا إلى الأعداد المذكورة المستوطنون المسلحون- وكلهم كانوا كذلك- والأسرى الايطاليون والألمان لدى الحلفاء في المنطقة، تضاعف العدد وظهر بذلك حجم الجريمة المنظمة برعاية إدارية وأمنية رسمية... مما بداخلها في جرائم الحرب ضد المدنيين. وقد تلقت هذه الميليشيات حسب التقرير دائما مساعدات فعلة من تنظيمات مدنية وأمنية عدة منها : مجموعة فرنسا المكافحة، الاتحاد العلمي للنقاب، قدماء المحاربين، الاسرائليون، الكشافة الفرنسية ... الخ. وهذا ما زاد من الكارثة وفضاعة الجريمة .

3- تضارب الأرقام بشأن الضحايا من الطرفين: الضحايا الفرنسيون وعدد

الشهداء الجزائريين. فقد صرح " توبيير " وزير الداخلية الفرنسي، بان عدد قتلى الأوروبيين كان 88، كما ذكر تقرير عدد 103 أوروبي. مع العلم انه كان قد ترأس لجنة تحقيق في الأحداث- الجريمة ؟ مما يضيف عدم المصادقة على تقريره مع الإشارة إلى أن لجنته

زارت سطيف فقط ولم تزر منطقة ولا مدينة قالمة، وعادت للعاصمة حيث أوقف عملها الجنرال ديغول .

وتورد وثيقة صادرة عن الديوان العسكري للحاكم العام بتاريخ 19 / 12 / 1945م⁽²⁶⁾ أي بعد أكثر من 6 أشهر من وقوع الأحداث، موجهة إلى وزير الداخلية تقدم حصيلة لقتلى الأوروبيين على النحو الآتي:

المدينة	قالمة	سطيف	خرابة	تاكينوتن	المعاضيد	جيجل وقرقور	المجموع
عدد القتلى:	14	23	08	17	01	17	80

وفي رسالة أخرى بنفس الملف المذكور موجهة من ديوان الحاكم العام إلى وزير الداخلية الفرنسية بتاريخ 18 جانفي 1946، أي بعد حوالي شهر من إبراق الأولى... ذكرت عدد القتلى الأوروبيين على النحو التالي:

المدينة:	قسنطينة	قالمة	سطيف	المجموع
عدد القتلى:	01	20	93	114

وفي اعتقادنا، وبعيدا عن المغالطات التاريخية والمضاربة السياسية كما الاندفاع العاطفي - وهو ما يجب عن المؤرخ الباحث تنزيه نفسه عنه- فإن الأرقام الأقرب للواقع الموضوعي لحصيلة عدد قتلى الأوروبيين في كل مناطق الأحداث هو رقم 80 قتيلا الوارد في تقرير الديوان العسكري، على أساس أن جهة إعداد التقرير يدخل العمل ضمن اختصاصاتها، وعادة ما تكون تقاريرها اقرب إلى الصدق والدقة (وهي طبعا الجهة الأمنية والعسكرية) باعتبارها أكثر مهنية وجدية وانضباط، بعيدا عن التوظيف السياسي في الغالب...عكس ما هو الشأن بالنسبة للحاكم العام، أو وزير الداخلية لصفتهما السياسية أولا.

كما أن التقرير أو رد قائمة تفصيلية بأسماء القتلى الأوروبيين وأماكن قتلهم..الخ⁽²⁷⁾ . أما بشأن قتلى أو بالأحرى شهداء الجزائر، فقد أوردت التقارير الفرنسية عدد 1200 إلى 1500 قتيلا - حسب تقرير وزير الداخلية الفرنسي السيد تيكسيه - في حين الصحافة العالمية قدرتها من 7000 إلى 18000 ألف شهيد حسب صحيفة نيويورك تايمز بعد شهر ونصف من الحوادث. وبخصوص التقارير الجزائرية فإن تقديراتها ذكرت ما بين 45 ألف إلى 10000 ألف شهيد... وقد استقر رأي الغالبية على رقم 45 ألف شهيد.

وإذا عملنا مقارنة عددية بين ما استقر عليه رأى الدارسين والباحثين بخصوص قتلى وضحايا الطرفين، فإننا نعجز رياضيا أو موضوعيا عن مقارنة: 80 قتيلا أوروبيا مع 4500 شهيدا جزائريا، فالأرقام نفسها لا تقوى.. فهل يمكن مقارنة تأثير سقوط قطرة الندى مع تدمير عاصفة تسونا مي الهوجاء ؟ مما يعني أن الجريمة كانت منظمة ومخطط لها سلفا، ومرعية من الجهات الفرنسية الرسمية، تتجاوز المظاهرات والمتظاهرين: مكانا وعددا وحدثا. وبذلك أخذت طابع وصفة الجريمة السياسية الرسمية، كمعطى ومعلم بارز ضمن النظام الاستعماري الفرنسي القائم على القتل والإبادة والعنصرية... فمتى يعي الجزائريون هذه الحقيقة - المأساة، ويتحركون للمطالبة بكشفها كاملة أمام الأجيال والرأي العام العالمي لإجبار الفرنسيين الرسميين وعموم شعبهم على الاعتراف بما اقترفوه من جرم ؟ لإنصاف الضحايا كل الضحايا... بما فهم التاريخ كأكبر ضحية ؟

الخاتمة

إن الفترة المدروسة في خطوطها العامة، تبدو - على مستوى الحركة الوطنية - أكثر نشاطا وحيوية، مزدحمة بالأحداث والتطورات والتجارب. وكان نزول الحلفاء بالجزائر في 08 نوفمبر 1942 محركها الرئيسي إلى جانب الفراغ السياسي الذي خلفه اعتقال زعماء الحركة الوطنية (أمصالي الحاج والإبراهيمي خاصة) ووفاة الشيخ ابن باديس في 16 أبريل 1940، وحظر النشاط السياسي الوطني، وأخيرا عودة " عباس " من جبهة القتال سنة 1941 ... كلها عوامل مكنت " عباس فرحات " ممثل النخبة البرجوازية الوطنية - أن يخرج من دائرة الظل إلى الساحة الوطنية ويملا الفراغ السياسي، ويبرز

كشخصية وطنية أكثر اعتدالا وتحررا من الأطروحات الإدماجية، لصالح الفكرة الوطنية الجزائرية، واستطاع أن يبني تحالفا ثلاثيا ممثلا في (النخبة والنواب، الجمعية، وحزب الشعب)، برز هذا التحالف من خلال تحرير " البيان الجزائري " سنة 1943، ثم تشكيل جبهة " أحباب البيان والحرية " في 14 مارس 1944، تلك الجبهة التي ستقود خطى الحركة الوطنية، وتوفر الشرعية الشعبية اللازمة لهذا الزعيم الوطني الجديد ضمن هذه " الحركة الوحدوية "

لكن تأمر المستعمرين ضد الحركة الوطنية عامة وحركة " أحباب البيان والحرية " وقادتها خاصة حال دون استمرار " المشوار المشترك "، وتحقيق الوحدة الروماتيكية بين أطراف الحركة الوطنية. وتجيء محطة 08 ماي 1945، وما صاحبها من مجازر فضيعة في حق الشعب الجزائري لتضع الحد لهذا " التحالف الوطني "، " وإدارة الظهر " لقرارات مؤتمر مارس 1945 - على حد رأي قيادة حزب الشعب آنذاك - .

ومع هذا فإن الحركة الوطنية بعد هذه التجربة والمحنة معا، بدت أكثر صلابة ووعي وأعمق تجربة على الرغم أن فرنسا كانت قد توخت من وراء ارتكابها تلك المجزرة الشنيعة تحقيق أهداف مخططة سلفا منها: - إخماد همة الجماهير الشعبية الملتفة حول حركة أحباب البيان، وتكسير الوحدة القائمة بين التشكيلات الوطنية المذكورة ... وأخيرا عزل وردع عناصر حزب الشعب عن الحركة، وتحميلهم مسؤولية ما حدث ... إلا أن مساعيها خابت، حيث ستشكل هذه الأحداث نقطة انعطاف وتحول في اتجاهات العمل الوطني نحو الاقتناع النهائي بضرورة دفع الجيل الجديد الذي صهرته محنة الحرب العالمية الثانية، وعركته مأساة الثامن ماي 1945، لأخذ المشعل الوطني بوسائل وأساليب جديدة أكثر وطنية وثورية، تلك هي الوسائل المادية والبشرية والتنظيمية لخوض الكفاح المسلح. اللغة الوحيدة التي يفهمها المستعمر الفرنسي؛ ويشكل ذلك استباقا مدهشا لتحضير ثورة نوفمبر 1954 الخالدة .

الهوامش:

- (1) محمد حربي، ترجمة نجيب عياد - صالح المثلوثي، الثورة الجزائرية سنوات المخاض ط. موفم للنشر الجزائر 1994، ص 82 .
- (2) - نفس المرجع ص: 87 .
- (3) - نفس المرجع ص: 96 .
- (4) - فرحات عباس ترجمة أبو بكر رحال، ليل الاستعمار ط ؟، مطبعة فضالة المحمدية المغرب ؟ ص : 04 .
- (5) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ج3، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986، ص : 169.
- (6) - أحمد محساس، ترجمة الحاج مسعود مسعود ومحمد عباس: الحركة الثورية في الجزائر ط؟ دار القصبة للنشر الجزائر 2002 ص 184.
- (7) - محمد حربي، ترجمة كميل قبصر داغل: جبهة التحرير الوطني - الأسطورة والواقع ط1، مؤسسة الأبحاث العربية لبنان 1983، ص33 .
- (8) - محمد العربي الزبيري، الحركة الوطنية في مرحلة النضج 1948 - 1945، مجلة الرؤية، عدد1 السنة 1، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 1996 - ص : 130.
- (9) - عباس فرحات، ليل الاستعمار (مرجع سابق) ص : 196 - 197 .
- (10) - محساس (مرجع سابق) ص: 191 .
- (11) - سعد الله ،(مرجع سابق) ص:189.
- (12) - نفس المرجع ص: 234 .
- (13) - فرحات عباس (مرجع سابق) ص: 185 .
- (14) - محمد حربي، جبهة التحرير(مرجع سابق) ص: 37 .
- (15) - سعد الله ، (مرجع سابق) ص: 228 .
- (16) - د/ بشير خلدوني، أصول الحركة الوطنية وتطورها، مجلة لرؤية، عدد1 (مرجع سابق) ص: 64.
- (17) - سعد الله ، (مرجع سابق) ص: 229، انظر: بن جامين سطوره : ترجمة صادق عماري ومصطفى ماضي : أمصالي الحاج رائد الوطنية الجزائرية، ط؟دار القصبة الجزائر 1999 ص: 191 - 192 .
- (18) - سعد الله ، (مرجع سابق) ص: 230، وكذلك عباس فرحات (مرجع سابق) ص:186 وأحمد محساس، (مرجع سابق) ص: 238 .
- (19) - فرحات عباس (مرجع سابق) ص: 188 - 189.
- (20) - محمد الأمين بلغيث، تاريخ الجزائر المعاصر، ط1 دار البلاغ الجزائر 2001 ص:162
- (21) - سعد الله ، (مرجع سابق) ص: 252.
- (22) - فوزية بوسباك، شهادات حية عن أحداث 08 ماي 1945، مجلة الذاكرة عدد:02 السنة الثانية، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1995، ص: 109 .
- (23) - سليمان الشيخ ترجمة محمد حافظ الجمالي، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين، ط؟، دار القصبة للنشر، الجزائر 2003 - ص: 44 .
- (24) - د/ جمال قنان، جنور ثورة نوفمبر 1954، مجلة الذاكرة، عدد، 5 المتحف الوطني للمجاهد الجزائر 1998 ص: 109.
- (*) مسئول منطقة دائرة قالمة.
- (25) caom: 81f867; gouvernement général de l'Algérie a monsieur le ministre n : 570 date: le14 juin 1946.
- (26)caom : 81f867; gouvernement général; cabinet militaire à monsieur le ministre de l'intérieur n : 111en date du 19.12.1945.
- (27) محمد شرقي : وثائق مجازر 08 ماي 1945 قالمة وسطيف، مداخلات الملئقى الدولي 04 حول مجازر 08 ماي 1945، مديرية النشر بجامعة قالمة 2006، ص: 26- 27 .